قَـلْـبُ يَـبْـحَـثُ عَـنْ صَـاحِـبِـهِ

كُنْتُ أَسِيرُ بِبُطْءٍ دُونَ هَدَفٍ، وَأَنَا أَرْمِي مَاحَوْلِي بِنَظَرَاتٍ شَارِدَةٍ ... فَجْأَةً تَعَثَّرَتْ رِجْلَيَّ بِشَـيْءٍ ناعِمٍ فِي الظَّلَامِ الدَّامِسِ الَّذِي يُحِيطُ بِي ... عِنْدَهَا اِنْحَنَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ لِأَتَفَحَّصَ هَذَا الشَّيْءَ، فَلَمْ أَتَمَالَكْ نَفْسِي مِنْ إِطْلَاقِ صَيْحَةِ دَهْشَةٍ وَرُعْبٍ... يَا إِلَهِي !!

لَمْ يَكُنْ هَذَا الشَّيْءُ الْقَابِعُ عَلَى الْأَرْضِ بَيْنَ قَدَمَيَّ سِوَى قَلْبٍ حَيٍّ اِقْتُلِعَ بِمَهَارَةٍ فَائِقَةٍ مِنْ مَكَانِهِ... قَلْبٌ حَيٌّ تَمْلَؤُهُ الدِّمَاءُ ... قَلْبٌ كَالْقُلُوبِ الَّتِي نُشَاهِدُهَا فِي كُتُبِ الْأَحْيَاءِ تَمَامًا.

أَخَذْتُ الْقَلْبَ بَيْنَ كَفَّيَّ بِحَذَرٍ شَدِيدٍ وَعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ، كَادَ أَنْ يُغْشَى عَلَيَّ مِنْ فَرْطِ الرُّعْبِ، الَّذِي شَعَرْتُ بِهِ بِسَبَبِ الدَّقَّاتِ الصَّادِرَةِ مِنْهُ... أَجَل! كَانَ الْقَلْبُ لَايَزَالُ حَيًّا وَدَافِئًا وَيَنْبِضُ بِكُلِّ قُوَّةٍ " تِيكْ تَاكْ ... تِيكْ تَاكْ"!

دَارَتْ عَشَرَاتُ الْأَفْكَارِ فِي رَأْسِي، وَأَنَا حَائِرٌ لَا أَدْرِي مَاذَا أَفْعَلُ: أَأَحْتَفِظُ بِالْقَلْبِ أَمْ أَرْمِي بِهِ بَعِيدًا؟ ... كُنْتُ أُرِيدُالتَّخَلُّصَ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ الحَرِجِ، وَلَكِن كَانَتْ كَأَنَّ يَدًا خَفِيَّةً تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ رَمْيِ الْقَلْبِ الْحَيِّ وَالْاِبْتِعَادِ عَنْهُ.

مَرَّتْ بِضْعُ دَقَائِقَ قَبْلَ أَنْ أُحِسَّ بِبَعْضِ الْهُدُوءِ... وَفَجْأَةً قَـرَّرْتُ الْبَحْثَ عَنْ صَاحِبِ الْقَلْبِ.

طَرَقْتُ بَابَ أَقْرَبِ مَنْزِلٍ إِلَيَّ آنَذَاكَ ، وَكَانَ قَصْرًا فَخْمًا يُبْهِرُ الْأَنْظَارَ ... فَتَحَ لِي الخَدَمُ الْبَابَ وَقَادُونِي عَبْرَصَالَاتٍ وَرَدَهَاتٍ وَاسِعَةٍ، لِأُقَابِلَ صَاحِبَ الْقَصْرِ... كَانَتْ قَدَمَايَ تَغُوصَانِ فِي السَّجَّادِ النَّاعِمِ الَّتِي تُغَطِّي الْأَرْضِيَّـةَ، وَأَنَا أُحَاوِلُ جَاهِدًا إِزَالَةَ آثَارِقَطَرَاتِ الدَّمِ الْمُتَنَاثِرَةِ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى السَّجَّادِ بِقَدَمَيَّ. إِلَى أَنْ وَصَلَتُ إِلَى رَجُلٍ بَـدِينٍ مُنْـتَـفِخٍ مِنَ التُّخْمَةِ فَسَـأَلْـتُـهُ : أَهَذَا الْقَلْبُ لَكُمْ؟ إِنَّهُ لَا يَزَالُ يَنْبِضُ ...

رَدَّ قَائِلاً:

-يا عَزِيزِي! لَقَدْ بِعْتُ قَلْبِي لِلَذَّاتِ الدُّنْيَا وَزِينَتِها؛ ثُمَّ ارْتَسَمَتْ اِبْتِسَامَةٌ مَاكِرَةٌ عَلَى شَفَتَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ:

-اِسْأَلِ الْمَجْنونَ السَّاكِنَ في جِوَارِنا ... إِنَّنِي مُتَأَكِّدٌ أَنَّهُ يَعْرِفُ صَاحِبَ هَذَا الْقَلْبِ.

أَسْرَعْتُ إِلَى الْبَيْتِ الْمُجَاوِرِ حَامِلاً الْقَلْبَ الَّذي بَدَأَتِ الْبُرُودَةُ تَسْرِي فِيهِ، وَبَدَأَتْ دَقَّاتُهُ بِالتَّبَاطُؤِ...طَرَقْتُ الْبَابَ وَإِذَا بِالْمَجْنُونِ الَّذي تَحَدَّثَ عَنْهُ الرَّجُلُ الْبَدِينُ شَيْخٌ كَبِيرٌ؛ تَبْدُو عَلَى وَجْهِهِ سِمَاتُ الْوَقَارِ ، فَمَدَدْتُ يَدِي بِالْقَلْبِ نَحْوَهُ قَائِلاً:

-أَتَعْرِفُ صَاحِبَ هَذَا الْقَلْبِ ؟... أَرْجُو أَنْ تُسْرِعَ لِأَنَّهُ عَلَى وَشْكِ التَّوَقُّفِ.

رَفَعَ الشَّيْخُ رَأْسَهُ نَحْوِي، وَكَانَ يَحْمِلُ بِيَدِهِ مُصْحَفًا، فَطَوَاهُ بِكُلِّ عِنَايَةٍ ، ثُمَّ خَاطَبَنِي قَائِلاً:

-يَا بُنَيَّ! إِنَّنِي قَدَّمْتُ قَلْبِي وَكُلَّ حَوَاسِّي وَمَشَاعِرِي إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ،ثُمَّ اسْتَطْرَدَ مُبْتَسِمًا:

-لِمَ لَا تَسْأَلُ وَالِدَيْكَ عَنْ صَاحِبِ الْقَلْبِ ؟ تَعَثَّرَ الْجَوَابُ عَلَى شَفَتِي:

-لَقَدْ شَاخَا تَمَامًا، وَتَقَدَّمَ بِهِمَا الْعُمُرُ، وَهُمَا يَتَوَقَّعَانِ مِنِّي الْاِهْتِمَامَ الْمُسْتَمِرَّ بِهِمَا، وَكَأَنَّهُمَا طِفْلَانِ صَغِيرَانِ، فَتَشَاجَرْتُ مَعَهُمَا قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَتَرَكْتُهُمَا، وَغَادَرْتُ الْمَنْزِلَ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ.

اِرْتَسَمَ الْأَلَمُ عَلَى وَجْهِ الشَّيْخِ وَهُوَ يُتَمْتِمُ:

-أَتَرَكْتَهُمَا يَا بُنَيَّ؟ ... أَتَرَكْتَهُمَا !؟

أَخَذَتُ أُحَدِّقُ فِي وَجْهِ الشَّيْخِ بِبُرُودٍ، وَهُوَ يَنْتَظِرُ مِنِّي جَوَابًا شَافِيًا .ثُمَّ دَنَا مِنِّي بِخُطًا ثَابِتَةٍ وَأَمْسَكَ قَمِيصِي بِكِلْتَا يَدَيْهِ، ثُمَّ اسْتَجْمَعَ قُوَّاهُ وَمَزَّقَ قَمِيصِي، كَاشِفًا عَنْ صَدْرِي. فَنَظَرْتُ فَإِذَا فَجْوَةٌ دَامِيَةٌ فِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ مِنْ صَدْرِي، وَبِحَجْمِ الْقَلْبِ الَّذِي كُنْتُ أُمْسِكُهُ بِيَدِي...!!!